

دور العراق العثماني

في حرب القرم

دكتور عبد العزيز سليمان نوار

تعتبر حرب القرم نقطة تحول رئيسية في تاريخ أوروبا الحديث وفي تاريخ الدولة العثمانية . ولقد تعرضت كثير من المؤلفات والأبحاث لتاريخ هذه الحرب ، والملاحظ أن الغالبية العظمى من هذه الأبحاث لم تمن بصدى هذه الحروب في ولايات العراق العثماني .

كانت الدولة العثمانية أكبر قوة إسلامية هجومية دفاعية ضد عدوان أوروبا على الشرق الأدنى . واستطاعت خلال جهادها أن تقضى على الإمبراطورية البيزنطية ، وأن تقلم أطراف جمهورية البندقية ، وأن تمد سيطرتها على معظم البلقان والشام ومصر والعراق والخليج العربي^(١) ، واليمن والحجاز وشمال أفريقيا^(٢) . ولكن الدولة العثمانية عجزت عن خض شوكة الأساطيل البرتغالية في المياه العربية الجنوبية فأثرت الحكومة العثمانية أن تتوقع على نفسها وراء سواحلها ، ولم تحاول القوى الداخلية أن تنطلق إلى مجالات التنافس الدولي على قدم المساواة مع الدول الأوروبية القومية الناهضة^(٣) . كما أن هذه الدول الأوروبية لم تكن في حاجة إلى أن تقنعم على الدولة العثمانية قوتها ، ولا شك أن نظم الحكم العثماني مسئولة إلى حد كبير عن الجمود الذي أصاب الدولة ، حيث أن قوة الدولة كانت مستمدة — في كثير من الأحيان — من قوة سلاطينها ورجالها الباب العالي ومن نزاهة كبار الموظفين وحكام الولايات (الولاة) . ولكن بعد السلطان مراد الرابع^(٤) — آخر السلاطين العظام الفاتحين — تولى العرش عدد من السلاطين الضعاف الذين لم يحسنوا اختيار

(١) باستثناء الجزء الجنوبي الشرقي .

(٢) باستثناء مراکش .

(٣) باستثناء حركتي نجر الدين المعني الثاني وعلى بك الكبير اللتين فشلتا في إنشاء علاقات

خارجية دائمة .

(٤) حكم من ١٦٢٣ — ١٦٤٠ .

موظفيهم أو حكام الولايات . ثم إن الدولة كانت مقسمة إلى ولايات يحكم كل منها « وال » كانت مدة حكمه قصيرة ، وكانوا لا يعنون إلا باستتباب الأمن وجمع الضرائب ، ولم يعنوا بالخدمات التعليمية ولا الاقتصادية ولا الاجتماعية . فتلك الخدمات كانت من جهة نظر الحكام العثمانيين من مسؤوليات الشعب نفسه ، الأمر الذي حال دون وجود مثل هذه الخدمات بسبب انتشار الجهل بين أفراد الشعب ، ولعدم احتكاكه بشعوب خارجية يقتبس منها أشكالاً حديثة من الخدمات الضرورية . هذا إلى أن الشعب كان يعيش على هيئة دوائر شبه مغلقة نتيجة لسطحية الحكم العثماني من جهة ولأن الشعب كان مقسماً إلى طوائف (١) ، وملل (٢) ، وأهل مدن (٣) ، وأهل أرياف (٤) ، وإلى عشائر (٥) وعصبيات محلية حاكمة معترفة بالتبعية للسلطان (٦) . وهكذا كان التفكك هو الطابع الواضح للتشكيل الداخلي للدولة العثمانية حيث أن ذلك النظام كان يقوِّع كل ولاية وكل ملة ، وكل عصبية وكل طائفة وكل عشيرة حول نفسها . ولم تلبث الولايات العثمانية أن أصبحت تحت حكم عصبيات محلية سواء بموافقة الباب العالي عن طيب خاطر أو رغم أنه .

- (١) كانت كل طائفة مسئولة عن تدبير أمورها بنفسها ، وكان شيخ الطائفة هو المسئول عن تحسين أحوال طائفته وحل مشاكلها الداخلية أو مشاركتها مع الحكومة .
- (٢) كانت لكل ملة غير إسلامية قوانينها الخاصة بها . ولم تكن الدولة تتدخل في القضايا المذهبية طالما لا يوجد تهديد مباشر للأمن . وكان للرئيس الديني — كالبطريق مثلاً — سلطات مالية وإدارية واسعة .
- (٣) كان أهل المدن أقرب الناس إلى متناول أيدي الحكام . ومن ثم كانت أغلب المدن الكبرى خاضعة للحكم العثماني فيما عدا تلك المدن التي ظهرت فيها أسر حاكمة مثل مدن السليمانية وأربيل والعمادية .
- (٤) لم يكن الفلاحون طائفة متماسكة ، وإن كانوا يشكلون القاعدة الشعبية الكبرى في المناطق الخصبة في العراق ومصر والشام وشمال إفريقيا ، وكانوا يعانون من شدة استبداد الحكام بهم .
- (٥) كانت العشائر العربية تملأ العراق والشام وشبه الجزيرة العربية وشمال إفريقيا وأطراف مصر ، وكانت كل عشيرة تحت إمرة شيخها ، وكانت هذه العشائر تكره الحكم العثماني التركي وتقاومه كلما استطاعت ذلك . وأما العشائر الكردية في شمال العراق فكانت تلمب على الحكام العثمانيين وعلى الفرس الطامعين في الاستيلاء على العراق .
- (٦) أبقى السلاطين العثمانيون الأمراء الأكراد ، وكذلك شيوخ العشائر وشريف مكة في مشيختهم مكتفين بإعلان هؤلاء الزعماء الولاء للسلطان العثماني .

ولقد ظهر المماليك في العراق في منتصف القرن الثامن عشر كعصية احتكرت الحكم في ولاية بغداد وتوابعها^(١) وحاول المماليك أن يفرضوا حكمهم على العراق بأسره ، ولكن قاومتهم الإمارات والعشائر الكردية بقوة لا تقبل عن مقاومة العشائر العربية لهم . وكان السلاطين العثمانيون ينظرون بقلق بالغ إلى تلك العصابات ويودون لو استطاعوا أن يعيدوا حكمهم المباشر إلى ولاياتهم ، ولكن توالى الأزمات الداخلية والحروب الحاصرة ضد روسيا والنمسا شغلت الدولة العثمانية عن مهمة إعادة الحكم المباشر إلى جميع الولايات

وظل الأمر على هذا النحو حتى وقعت الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت ، وأثبتت هذه الحملة عجز العصابة المحلية المملوكية الحاكمة في مصر عن حماية البلاد ، كما أثبتت عجز الجيوش العثمانية عن طرد الفرنسيين من مصر إلا بمساعدة الإنجليز . وأصبح جلياً أن الدولة العثمانية أصبحت في حاجة سريعة إلى تجديد جيشها إذا أرادت أن تدفع عن نفسها عدوان العرب الذي تعددت لديه مشروعات تقسيم الدولة العثمانية بين دوله . ولقد أقدم السلطان سليم الثالث على محاولة جريئة لإعداد جيش على النظام الأوربي إلا أن الرجعية الانكشارية البكتاشية في الآستانة وجهت ضربة سريعة وقاضية للسلطان ، أنهت حياته ، وأوقفت مشروعه ، ولكن إلى حين . فمع أن السلطان محمود الثاني تولى العرش في أعقاب ذلك الانقلاب الرجعي (١٨٠٨) إلا أنه بمرور السنوات أدرك أن سلفه سليم الثالث كان على حق ، فدر ضربة محكمة للانكشارية (١٨٢٦) قضت عليهم نهائياً ، وأطلقت يده في إصلاح أمور الجيش ومختلف أجهزة الدولة . وكان من أعز أمانيه أن يعيد حكمه المباشر إلى كل الولايات الواقعة تحت حكم العصابات ، ونجح فعلاً في أنه يعيد حكمه المباشر إلى ولايات العراق والأناضول وطرابلس (ليبيا) . إلا أن اصطدام محمود الثاني بالثورة القومية اليونانية ، وبمركة التوسع المصري أيام « محمد علي » أدى إلى عرقلة تلك الجهود . ولقد أرغمت الدول الكبرى الأوربية محمد علي على الانسحاب من المورة إلا أن « محمد علي » انزع

(١) كان العراق مقسماً إلى ولايات أربع هي (بغداد ، الموصل ، شهر زور ، البصرة) ولم تلبث البصرة أن أصبحت متسلمية تابعة لبغداد ، بينما تلاشت ولاية شهر زور وأصبحت عدة إمارات كردية من أشهرها الإمارة البابانية في السليمانية ، والبهديانية في الهاديية ، والبوتانية في جزيرة بن عمر ، والصورانية في رواندوز ، وكانت هذه الإمارات تحت إشراف ممالك بغداد . أما الموصل فظلت ولاية قائمة بذاتها .

منه الشام ومع أن الحكم المصري في الشام كان حكماً تقديمياً — إذا قيس بالحكم العثماني هناك — فإن الدول الكبرى الأوربية وعلى رأسها إنجلترا ، عملت على سلب مصر مكاسبها وعلى منع قيام دولة عربية قوية في المنطقة ، حيث أن مصر خلال الثلاثينات من القرن التاسع عشر أصبحت تسيطر سيطرة فعلية على خطوط المواصلات العالمية الحديثة السريعة بين أوروبا والشرق الأقصى . ثم إن السلطان العثماني عقد اتفاقية خنكارسكله سى (١٨٣٣) في أعقاب هزأته أمام الجيوش المصرية ، فاتحاً بذلك المضائق أمام الأسطول الروسي ، واعتبرت إنجلترا تلك الاتفاقية بمثابة حماية روسية على الدولة العثمانية .

لهذا وضع بالمرستون Palmerston — وزير خارجية إنجلترا حينذاك — سياسته على أساس إعادة ولايات الشام وشبه الجزيرة العربية إلى السلطان العثماني ، على أن تصبح إنجلترا من وراء ذلك صاحبة اليد العليا في خطوط المواصلات العالمية عبر العراق أو مصر . فأزلت الحكومة الإنجليزية أربع بوادر مسلحة في أنهار العراق بين ١٨٣٥ — ١٨٣٩ فجعلت العراق بذلك قاعدة دفاعية هجومية ضد الوجود المصري في الشام وتمنع أية محاولات لإيجاد تعاون بين شعبي العراق ومصر ضد الحكم العثماني . كذلك عملت السلطات الإنجليزية على مساعدة العثمانيين في القضاء على العصبيات المحلية المتطلعة إلى مصر أو المستفيدة من التوسع المصري^(١) .

وكما كانت الحملة الفرنسية على مصر من العوامل التي دفعت الدولة العثمانية إلى تنفيذ الإصلاحات العسكرية ، فإن انتصارات المصريين في الشام كانت دافعاً مباشراً للعثمانيين لتطوير نظمهم ، فصدر خط كلخانة (١٨٣٩) الذي نص على المساواة بين الرعية أمام القانون بغض النظر عن الدين والمذهب ، وعلى أن يتحمل الجميع أعباء المواطنة العثمانية فيما يتعلق بموضوعي الضرائب والجنسية . وإذا كانت الرجعية الانكشافية هي التي عصفت بمحاولة سليم الثالث الإصلاحية فإن السلبية البيروقراطية والجهل والاضغوط الاستعمارية هي العوامل الرئيسية التي جمدت خط كلخانة وجعلته مجرد حبر على ورق . على أن هذا الخط يمكن أن يعتبر نقطة بداية لإصلاح جديد ، كما يعتبر بداية

(١) عبد العزيز سليمان نوار ، تاريخ العراق الحديث ١٨٣٠-١٨٧٤ ، المكتبة العربية

القاهرة ١٩٦٨ الفصل الخامس ص ١٢٠ - ١٥١ .

لظهور مفاهيم جديدة عن الدولة العثمانية لدى بعض طوائف الدولة العثمانية وملها .
وقد اعتقد المسلمون أن ذلك الخط سيؤدي إلى تحول من جانب الدولة إلى المسيحية
الأوربية . بينما اعتقدت الملل المسيحية في الدولة أن ذلك الخط إيذان بانتصار قريب
للمسيحية على الإسلام ، وأن الوقت قد أزمف لأن يضع مسيحيو الشرق أيديهم
في أيدي مسيحي أوروبا لتحقيق ما فشلت فيه الحروب الصليبية ، ولهذا رأى المسيحيون
في الدولة العثمانية في ذلك الخط حقوقاً لهم ، ولم يروا فيه واجبات عليهم نحو الدولة ،
فامتنعوا عن الدخول في الجندية ، ورحب المسلمون بذلك .

والملاحظ أنه منذ أوائل القرن التاسع عشر تزايد اهتمام الدوائر السياسية
والكنسية الأوربية بمسيحي المشرق العثماني ، وأصبح هؤلاء المسيحيون يجدون
في قناصل إنجلترا وفرنسا وفي المبشرين الفرنسيين الكاثوليك والبروتستانت الإنجليز
والأمريكيين قوة يعتمدون عليها في التخلص من الواجبات المفروضة عليهم ،
وفي الحصول على حقوقهم ، بل وفي الثورة على الدولة العثمانية وعلى الحكام المسلمين
المحليين . وتطورات كهذه كفيلة بأن تثير فتناً هوجاء ، وهذا ما حدث في شمال
العراق بين النساطرة^(١) والأكراد (١٨٤٢) حيث وقعت مذبحجة للنساطرة كان لها دور
كبير في دوائر الدولة والدوائر العالمية .

ولم تكن الأزمات الطائفية بقاصرة على النزاع بين المسلمين والمسيحيين بل وقعت
أزمات مشابهة بين الجالية الشيعية الكبيرة في العتبات المقدسة وحكومة فارس من
جهة والحكومة العثمانية من جهة أخرى^(٢) . وكانت فارس الجبلية الشيعية المذهب
خلال القرون الماضية تتطلع إلى احتلال سهول العراق الخصبة التي تحتوى على قبرى

(١) النساطرة هم أتباع نسطوريوس أسقف القسطنطينية (٤٢٨ م) الذي دعا إلى المذهب
الذي عرف باسمه والذي يجعل المسيح طبيعتين لإحداها لاهوتية والثانية ناسوتية ولكن تحدها
كيرلس بطريق الإسكندرية حتى نفاه ومات في المنفى (٤٥٠) . وخلال العصر العباسي
كانت أكرثية نصارى العراق من النساطرة واستمروا متمسكين بمعتقداتهم دون أية اضطهادات
مقصودة حتى القرن التاسع عشر . وقد درسنا الصراع الدموي بين النساطرة والأكراد في
١٨٤٢ في كتابنا « تاريخ العراق الحديث » الفصل السادس .

(٢) العراق قسمة تقريباً بين الشيعة والسنة وكربلاء والنجف مدينتان عربيتان تقطن
فيهما جاليتان فارسيتان كبيرتان كانتا من القوة لدرجة الطمع في السيطرة على المدينتين سيطرة
كاملة .

الإمامين « علي » و « الحسين » . ولا يكاد يمر قرن من الزمان حتى تنقض الجيوش الفارسية على العراق لتطردها الجيوش العثمانية ... وهكذا . وخلال الصراع بين محمد علي (والى مصر) والسلطان محمود الثاني ، مد شاه فارس يده إلى « محمد علي » لعله يتفاهم مع محمد علي من أجل استعواذ فارس على العراق ، أو على الأقل ليضع يده على السليمانية والمهمرة . والعتبات المقدسة^(١) . ولهذا عنيت الحكومة العثمانية قبيل وبعد انسحاب المصريين من الشام بتوطيد الحكم العثماني في العراق ، وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى تزايد التوتر بين الدولتين العثمانية والفارسية ، وكاد الموقف أن ينفجر عندما حاصر نجيب باشا (والى بغداد ١٨٤٢ — ١٨٤٧) كربلاء وكانت قد استعصت على اسلافه . وحيث أن الجالية الفارسية بالمدينة تمسكت بالقوة بما كان لكربلاء من شبه استقلال ذاتي^(٢) ، فقد تحول هجوم القوات العثمانية على المدينة إلى مذبحه للشيعه هناك ، ولم تبدأ الأمور إلا بتدخل كل من روسيا وانجلترا حتى سويت الأزمة بالمفاوضات .

وفي جنوب العراق كانت هناك مشكلة معقدة حول المهمرة وعربستان (خوزستان) فقد سبق أن استولى « علي رضا باشا » — والى بغداد — على المهمرة سنة ١٨٣٧^(٣) ولكنه تركها في يد رؤساء عشيرة كعب العربية^(٤) ، وكان عملاء الفرس من هؤلاء الزعماء أكثر دهاء من عملاء العثمانيين الأمر الذي أدى إلى ضياع المهمرة وعربستان من الدولة العثمانية بتمتضي معاهدة أضراروم الثانية (١٨٤٧) التي وقعت بوساطة من روسيا وانجلترا^(٥) .

(١) ع. نوار : تاريخ العراق الحديث ص ٢٠٤ .

(٢) وصفت كربلاء في بعض الوثائق بأنها « A self-governing semi alien Republic » .
J. Lorimer : Gazetteer of the Persian Gulf Culcutta, 1915, Vol. I, Pt. I, pp. 1348-1349.

(٣) V. Fontanier : Voyage dans l'Inde, Paris, Tome I, pp. 360.5, (٣)
374.5, 602.4 ; R. Taylors, Memorandum (I.O.R., P.P.G., Vol. 35, pp. 799-818).

(٤) H. Layard : Early Adventures in Persia, London 1887, (٤)
Vol. I, pvp. 455-459, Vol. II, pp. 216, 244, 271-272 ; Taylor's Despatch to the Secret Committee : July 8, 1842. (India Office Records, Political Agent at Bagdad, Vol. 13, pp. 77-79).

(٥) انظر نص الاتفاقية في « الجمهورية العراقية (وزارة الخارجية) قضية الحدود المراقبة-

الإيرانية — مطبعة الحكومة — بغداد ١٩٣٥ ص ٤ — ٨ .

وبينما حصلت فارس على عربستان بمقتضى تلك المعاهدة فقد تخلت عن جميع مطالبها في السلمانية وكردستان. وكان ذلك تمهيداً للقضاء النهائى على العصبيات المحلية الحاكمة في كردستان. ولقد كانت الإمارات الكردية في شمال العراق مثار مشاكل معقدة متتالية بين الدولتين الفارسية والعثمانية، واستطاعت الحكومة العثمانية أن تقضى على الأسرات الحاكمة الكردية الواحدة بعد الأخرى، فسقطت الأسرة البهديمانية والأسرة البوتانية والأسرة الصورانية ولم يبق من العصبيات الكردية الحاكمة سوى الأسرة البابانية في السلمانية. وكان أحمد بابان هو الأمير الحاكم أثناء المفاوضات التي سبقت عقد معاهدة أرضروم الثانية. وكان الرجل جريئاً طموحاً. ووجد في القنصل الإنجليزي في بغداد المستر هنرى رولنسون Henry Rawlinson قوة تشد أزره ضد العثمانيين. وكان رولنسون يحث حكومته والحكومة العثمانية على الإبقاء على أحمد بابان حاكماً على السلمانية، إلا أن العثمانيين كانوا قد عقدوا العزم على تصفية الإمارات والعصبيات في العراق، وزحفت القوات العثمانية — بالتعاون مع عبد الله بابان أخى أحمد — صوب السلمانية وأرغمت أحمد على الفرار من عاصمته إلى إيران وتولى الحكم مكانه أخوه عبد الله (١). وعلى عادة البابانيين عاد أحمد من الأراضى الفارسية على رأس جيش جديد لاستعادة حكمه ولكنه فشل في هذه المحاولة رغم الدفاع الحار من جانب رولنسون عنه. وبعد ذلك بوقت قصير استدعى «عبدى باشا» — والى بغداد — من السلمانية حاكمها عبد الله بابان واحتفظ به في بغداد ثم نفاه إلى الآستانه (١٨٥١) وانتهى بذلك حكم الأسرة البابانية (٢).

تلك كانت الأوضاع العامة في العراق قبيل حرب القرم، ويمكن أن نوجزها في النقاط الرئيسية التالية.

١ — كان العراق مقسماً إلى ولايتين (بغداد والموصل). كانت بغداد مسئولة عن أمور البصرة وكردستان.

٢ — أصبحت للعراق قيمة كبيرة في مجال التنافس الدولى حول خطوط المواصلات العالمية بين الشرق والغرب بواسطة البواخر أو بواسطة السكك الحديدية.

H. Rawlinson to S. Canning, August 6, 1842, June 24, July 8, 1846, Sept. 29, 1846, F.O. 195/237; Rawlinson to Addington, No. 4, June 26, 1846, F.D. 78/656. (١)

Rawlinson to Aberdeen June 14, 1853, F.O. 195/957; Kembell to Canning No. 6, February 27, 1850, No. 21, July 3, 1850, F.O. 195/334. (٢)

٣ — انتهى عهد العصابات المحلية الحاكمة ولكن ظلت العشائر العربية والكردية على ما هي عليه من التنازع شديد حول شيوخها ومن ثورات تكاد تكون موسمية على الحكومة .

وكانت عشائر الجاف الكردية السنية تثير مشاكل عديدة عبر الحدود بين الدولتين الفارسية والعثمانية ، كما أن بعض العشائر العربية الشيعية كانت مستعدة للثورة بالتعاون مع الفرس . وكانت حكومة طهران وسلطانها في المناطق المجاورة للعراق مستعدة لإمداد الثوار السنيين والشيعة على السواء بالمساعدات المادية والعسكرية ضد الحكومة العثمانية ، خاصة وأن ذكريات أزمة كربلاء الدموية كانت لا تزال قريبة ، وأنه كانت هناك تطلعات قوية من جانب شيعة العتبات المقدسة نحو فارس . إلى جانب هذا كانت مشكلات الحدود لا تزال قائمة ، وكانت كل دولة تحاول أن تثبت بطريقة أو بأخرى أحقيتها في الأقاليم المتنازع عليها (قطور، زهاب ، الحمرة) . وكانت هناك لجنة مشتركة لتحديد الحدود تقوم بعملها في وضع خريطة تفصيلية لتلك الحدود . وكانت هذه اللجنة مكونة من مندوبين عن الدولتين الفارسية والعثمانية وعن الدولتين الوسيطتين : روسيا وإنجلترا . وخلال أزمات الحدود بين الدولتين اتضح أن روسيا كانت تشد أزر فارس ، بينما كانت إنجلترا تشد أزر الدولة العثمانية^(١) .

٤ — كانت ذكريات المذابح الطائفية بين الأكراد والنساطرة لا تزال تدوى في الآذان وكان النساطرة على استعداد للتعاون مع الدول الأوروبية المعادية للدولة العثمانية ، خاصة وأن إنجلترا وروسيا تدخلتا لصالح النساطرة خلال تلك المذابح^(٢) هذا إلى أنه كان من المعروف أن روسيا تحمي الأرثوذكس وفرنسا تحمي الكاثوليك وإنجلترا تحمي البروتستنت في الدولة العثمانية ، فدارت في العراق منافسات شديدة بين المبشرين الفرنسيين الكاثوليك والمبشرين البروتستنت الأمريكيين ، وكان النشاط

(١) ع. نوار : تاريخ العراق الحديث : الفصل الثامن .

(٢) Ross : Letters from the East (Edited by his Wife), London 1902, pp. 38, 52-59, 66-69, 135, 147 ; J. Piolet : La France au dehors. Les Missions Catholiques Françaises au XIXe siècle. Publiées sous la direction du Père J.B. Piolet, 2 Tomes. Paris, Tome I, pp. 259-260 ; J. Samuel : Journal of a Missionary Tour through the Desert of Arabia to Bagdad. Edinborough 1844; A. Grant : The Nestorians, London 1841.

التبشيري الفرنسي، قوياً لدرجة أن الممثلين الإنجليز في العراق تصوروا أن الفرنسيين بعد سنوات قليلة سيطروا سيطرة كاملة على مسيحي العراق ، فعمل المبشرون الإنجليز والأمريكيين على وقف النشاط التبشيري الفرنسي الكاثوليكي بين النساطرة ، وسموا إلى تحويل أكبر عدد منهم إلى البروتستنتية .

وبنشوب حرب القرم في يونيو ١٨٥٣^(١) كانت هناك احتمالات قوية لدى العثمانيين بشأن دخول فارس الحرب إلى جانب روسيا من أجل ابتلاع العراق ، كما كانت لدى الإنجليز احتمالات قوية أيضاً عن أن النشاط الروسي سيتزايد في اتجاه العراق بسبب ظروف الحرب . وكان الإنجليز كذلك يخشون من أن يستخدم الروس حكومة فارس في إثارة المشاكل في وجه الحكومة العراقية ، خاصة وأن علاقات فارس الإنجليزية لم تكن أقل سوءاً من علاقات فارس بالدولة العثمانية حيث أن حكومة فارس كانت تعتقد أن الإنجليز هم المسئولون عن ضياع كردستان وأفغانستان منها . كما كانت حكومة فارس تنظر بعين القلق لذلك التفاهم القوي بينهم وبين السيد سعيد سلطان مسقط^(٢) .

وكانت سنة ١٨٥٣ من أدق سنوات حرب القرم بالنسبة للدولة العثمانية ، حيث وقفت الأخيرة وحدها أمام روسيا فلم تدخل فرنسا أو إنجلترا الحرب ضد روسيا إلا في مارس ١٨٥٤ . وكان من المعروف أن الجيوش العثمانية لا تقوى وحدها على الصمود أمام الجيوش الروسية ، ومن ثم أصبح من المحتمل أن تنهار الدولة العثمانية خاصة إذا ما طغنت فارس طغمتها في العراق . وكان احتمال انهيار الدول العثمانية قوياً

(١) لن نخوض في تفاصيل حرب القرم فهي أشهر من أن تعد . ودراستنا هنا قاصرة على دور العراق في هذه الحرب ويكفي أن نشير إلى أن الصراع الفرنسي الروسي السياسي المذهبي كان عاملاً رئيسياً لتلك الحرب . على أن آمال روسيا في المضيق بل في الاستيلاء على الدولة بأسرها كانت الهدف الأسمى لروس . ونشبت الحرب في يونيو ١٨٥٣ ودارت مفاوضات لعقد صلح دون جدوى . ولما دمر الأسطول الروسي القطع البحرية العثمانية الراسية في سينوب دخلت فرنسا وإنجلترا الحرب . وكانت الأخيرة قد عزمت على منم روسيا من أن تنوسم على حساب الدولة العثمانية .

(٢) كان السيد سعيد سلطان مسقط (١٨٠٦ - ١٨٥٦) أكبر حليف لبريطانيا في الخليج العربي واشترك معها في العمليات الانتقامية ضد المشيخات العربية المطللة على الخليج العربي في ١٨٠٩ وفي ١٨١٩ .

جداً لدى هنرى رولنسون — القنصل الإنجليزي في بغداد ، فطفق يدبر أمره على هذا الأساس واعتقد أن من واجبه أن يسهل أمر استيلاء إنجلترا على العراق وكان يرى أن الإنجليز قد فاتتهم فرصة احتلال العراق خلال أزمة التوسع المصرى فى المشرق العربى (١٨٣٢ — ١٨٣٩) ، وأن الفرصة قد وامت للإنجليز مرة أخرى وعليهم أن ينتمزوها .

وكان رولنسون يرى أن المنطقة التى يجب أن تستعمرها بريطانيا هى ذلك المثلث الواقع بين الزاب الأدنى وعناه ومصب شط العرب . وأخذ رولنسون يحث حكومته على الإسراع بالعمل على احتلال العراق لقيمته الكبرى على طريق الهند . ولأن أهل العراق أنفسهم — حسب اعتقاده هو — يذنبون يوم الخلاص من الحكم التركى على يد الإنجليز (١) .

لكن هذه المخططات التى وضعها رولنسون لم تكن تتمشى مع سياسة حكومة لندن التى أصرت على المحافظة على كيان الدولة العثمانية ومنع الأسطول الروسى من الخروج من البحر الأسود . فوجهت حكومة لندن أنظار قنصلها فى بغداد إلى ضرورة العمل على المحافظة على كيان الدولة العثمانية فى دائرة اختصاصه ، وأهم ما يجب عليه أن يفعله فى هذا الصدد هو منع فارس من استغلال ظروف الحرب لاقتناص العراق (٢) .

ومع أن المسئولين الإنجليز اتصلوا بالشاه ، وتأكدوا منه أنه لن يضرب السلطان فى ظهره وأنه لن يثير مطالبه فى قطور وكرديستان وكرهستان وكرهلاء فى هذه الظروف إلا أن السلطات العثمانية كانت فاقدة الثقة تماماً بالحكومة الفارسية وكان العثمانيون يعتقدون أن تلك الوعود ليست سوى تمويهات تخفى مخططات تهدف إلى اغتصاب العراق بالقوة (٣) .

والملاحظ أنه فى أعقاب نشوب الحرب بين السلطان والقيصر ، وقعت سلسلة

H. Rawlinson to Addington, June 14, 1853, F.O. 195/957. (١)

Clarendon to Rawlinson : November 3, 1853, F.O. 78/957. (٢)

Thompson to Clarendon : November 20, 1853 (I.O.R., (٣)
F.R., P.P.G., Vol. 106, pp. 237-239) ; Rawlinson to Redcliffe : June
29, 1853, F.O. 195/367.

من حوادث الحدود فسرتهما السلطات العثمانية على أنها مقدمات غزو فارسي للعراق . فقد هاجمت عشائر من بني لام^(١) الشيعية العربية القوات العثمانية ثم فرت إلى الأراضي الفارسية دون أن تلحق بها قوات الحكومة العثمانية^(٢) . كذلك أثارَت بعض عشائر الحلف الكرديّة السنية الفوضى على الحدود العثمانية — الفارسية . وكانت لدى الممثلين الإنجليز في طهران معلومات تؤكد أن بعض المالكين للروس في البلاط الفارسي على اتصال بعشائر الحدود بقصد إثارتها ضد الدولة العثمانية لشغل بعض قواتها تخفيفاً عن جبهات القتال الرئيسية التي تعمل فيها الجيوش الروسية خاصة في البلقان والأناضول^(٣) .

وكان رشيد باشا الكوزللكي قد تولى باشوية بغداد في ١٨٥٢^(٤) . وكان شديد الاعتقاد بأن الفرس سيشتونون هجوماً على العراق إن أجلا أو عاجلا . وتبعاً لذلك اتخذ عدة تدابير لمواجهة الغزو الفارسي المنتظر . وكان على رشيد الكوزللكي أن يعتمد على موارد العراق المالية والبشرية دون انتظار مساعدات من الباب العالي الذي لم يكن لديه أى احتياطي من المال أو القوات لإرسالها إلى العراق . وكانت المشكلة المالية من أهم المشكلات التي واجهت تمويل مشروعات رشيد الكوزللكي الدفاعية فقد كانت خزانة بغداد خاوية ، فلجأ إلى فرض ضريبة جديدة دون استئذان من الباب العالي لمواجهة نفقات الاستعدادات العسكرية . وكان رشيد يريد أن يجعل من العراق نموذجاً لبقية ولايات الدولة العثمانية من حيث إنكار الذات وبذل الأموال في مثل هذه الظروف الحرجة . ولكنه عندما شرع في جمع هذه الضريبة وجد أنها لا يمكن أن تجمع إلا من أولئك الذين يقعون مباشرة تحت سيطرة الحكومة ، مثل الموظفين ، وأصحاب المنازل والتجار والأعيان والعلماء^(٥) ، أما العشائر العربية

(١) من كريات عشائر العراق . انظر عنها في عباس الغزاوي : عشائر العراق جزء ٣ ص ٢١٠ وما بعدها .

(٢) Rawlinson to Redcliffe : June 29, 1853, F.O. 195/362.

(٣) Thompson to Clarendon : July 22, 1854, August 21, 1854 (I.O.R., F.R., P.P.G., Vol. 108, pp. 594-602).

(٤) ظل والياً على بغداد حتى توفى بها سنة ١٨٥٦ .

(٥) Rawlinson to Redcliffe : July 25, 27, 1853, F.O. 195/367.

والكردية التي تؤلف أغلبية سكان العراق — فلم تسهم في تقديم المعونات المالية ، أولاً لنقص السيولة النقدية لديهم بشكل كبير جداً ، ولأنهم لم يتعودوا دفع الضرائب للحكومة إلا بتهديد السلاح . وفكر رشيد الكوزلكي كذلك في الأضرار اقتصادياً بفارس بسلبها بعض دخلها الوفير من ميناء المحمرة ، وذلك بأن يجعل ميناء البصرة ميناءً مفتوحاً فتتحول إليه السفن ولا تذهب إلى المحمرة فيعود إلى البصرة ازدهارها^(١) ، كما فكر في إقامة تحصينات في زهاب . وكانت منطقة زهاب مقسمة بين الدولتين الفارسية والعثمانية بمقتضى معاهدة أضروم الثانية . ومع هذا ظلت منطقة من مناطق النزاع . وبإقامة تحصينات عثمانية في المنطقة يمكن إغلاق أخطر طريق يسلكه الفرس عند غزو العراق . إلا أن الإنجليز لم يوافقوا العثمانيين على هذه المشروعات لا لأن الفرس يعارضونها بشدة فحسب بل لأنها أيضاً ستؤدي إلى أن يتخذ الفرس إجراءات مضادة عنيفة وقد يثيروا مشكلات الحدود بشكل يضر بالدولة العثمانية في هذا الوقت العصيب^(٢) .

كذلك اتجه رشيد الكوزلكي إلى وضع نقاط مراقبة على الحدود ، وحتى لا يثير أزمات حادة مع السلطات الفارسية ادعى أنه ينشئ محاجر صحية لمنع تسرب الكوليرا إلى العراق ، وكان المفروض هو أن تنتشر هذه المحاجر على طول الحدود الفارسية العراقية لتكون بمثابة مراكز مراقبة إلى جانب أنها يمكن أن تستخدم في منع المتسللين من اجتياز الحدود من إيران إلى العراق . ولكن السلطات الفارسية احتجت على تلك الإجراءات ، واعتبرتها أقرب إلى الأعمال السياسية منها إلى أعمال الصحة الوقائية الدولية^(٣) . ويبدو أن رشيد باشا لم يتابع تنفيذ خطته هذه حيث أن حاكم شستر حشد حينذاك عشرين ألف مقاتل^(٤) . ومن ثم أصبحت المواجهة العسكرية هي الأمر الملح في مثل هذه التطورات .

Rawlinson to Shell : January 29, 1853, F.O. 78/957. (١)

Ibid.

Turco-Persian Boundary Negotiations, Part I, (1843-1844), pp. 115-119, Part III (1845-1852), pp. 107/115, . . . 424/7B, F.O. 424/7D. (٢)

وانظر عباس الغزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين : بغداد ج ٧ ص ٧٩ و ١٨١ .

Rawlinson to Redcliffe : No. 36, December 13, 1853, F.O. 195/367. (٣)

Rawlinson to Redcliffe : No. 37, December 28, 1853, F.O. 195/367. (٤)

لم يكن تحت يد رشيد الكوزلكى سوى ١٦ ألف مقاتل ، وهو جيش لا يستطيع وحده أن يصد الجيوش الفارسية . ولكن لم يكن فى استطاعته أن يطلب المساعدة العسكرية من الولايات الأخرى . فمصر — التى استعجدها السلطان محمود الثانى من قبل لإتقاذ العراق من الغزو الفارسى^(١) سنة ١٨٢١ — ١٨٢٣ كانت قد أرسلت جزءاً من قواتها إلى جبهة البلقان^(٢) ، وتحولت القوات العثمانية المرابطة فى شمال العراق والشام والأناضول إلى أرضروم للاحتشاد هناك لصد أى هجوم من تلك النواحي^(٣) . بل لقد طلب السلطان العثمانى من والى الموصل — فى وقت متأخر من الحرب — أن يقدم خمسمائة خيال لإرسالهم إلى جبهة القرم^(٤) . وآثرت القيادات العثمانية ألا تسحب أية قوات من تلك التى تحت قيادة رشيد الكوزلكى حتى تمكنه من مواجهة أى هجوم مفاجئ فارسى^(٥) .

كان رشيد الكوزلكى فى نفس الوقت لا يستطيع أن يلقى بكل ما لديه من قوات فى الموقعة المنتظرة ، ولا يستطيع أن يوزع قواته كلها على المواقع الاستراتيجية التى يجب أن تعسكر فيها ، وذلك لأن العشائر الكردية والعربية ما كانت لتتورع عن الثورة فى مثل تلك الظروف الحرجة . ولذلك لم يكن فى وسع رشيد الكوزلكى سوى أن يستخدم عشرة آلاف جندى فقط من قواته لمواجهة الغزو الفارسى . وأما الستة آلاف الباقية فيجب أن تبقى للمحافظة على هدوء العشائر . إلا أن رشيد الكوزلكى عمل على تنفيذ خطة طيبة اعتقد أنها تمكنه من الاستفادة من الستة آلاف جندى — سالف الذكر — فى مواجهة الغزو الفارسى فقد أعلن أن الحكومة تريد أن تفتح صفحة جديدة مع العشائر وعفا الله عما سلف ، وطلب من العشائر أن تقدم رجالها للدفاع عن البلاد وأن تقف كلها وقفة بطولية إلى جانب جيش الحكومة دفاعاً عن دولة الخلافة . وكان الكوزلكى يعتقد أنه بذلك يستطيع

(١) ع. نوار : داود باشا : المكتبة العربية القاهرة ١٩٦٨ ص ١٧٦ — ١٧٩ .

(٢) عبد الرحمن الراقعى : عصر اسماعيل . الطبعة الثانية القاهرة ١٩٤٨ ج ١ ص ١٨

— ٣٥ و ١٩ — ٣٧

(٣) Rawlinson to Redcliffe : June 29, 1853, F.O. 195/367.

(٤) Rassam to Cadrington (C. in C. of British Forces in the East, April 7, 1856), No. I, F.O. 195/394.

(٥) Rawlinson to Redcliffe : June 29, 1853, F.O. 195/367.
Rawlinson to Malmesbury : F.O. 78/957, 1853.

أن يكسب هدوء العشائر وبالتالي يستطيع أن يستخدم كل ما كان تحت يده من قوات في جبهات القتال المتوقعة ، كما أن هدوء الجبهة الداخلية العراقية — وهو أمر قليل الحدوث — سيجعل من المسير على الفرس التدخل في أمور العراق الداخلية ، ناهيك عن غزوه (١) . ويبدو أنه لقي نجاحاً في هذه الخطة ، حيث أننا لم نسمع عن تمردات عشائرية خلال فترة الحرب (١٨٥٣ — ١٨٥٦) (٢) . بل إنه استطاع أن يدعوا عشائر ستمر الجربا (٣) وعشائر عتره (٤) إلى الإنضمام إلى الجيش ، كما طلبت من عشائر المنتفق (٥) أن تكون على أهبة الاستعداد لحوض المعركة المقبلة .

كذلك استعان رشيد الكوزلـكلى بالأمرات الكردية الحاكمة سابقاً ، لجمع قوات إضافية . فقد طلب من رسول بك (آخر أمراء راوندوز) أن يتوجه إلى كركوك بما يستطيع جمعه من القوات الكردية ، كما استدعى من الأستانة عبد الله بابان — آخر حكام السليمانية — وطلب منه أن يجمع أكبر عدد ممكن من القوات الكردية للدفاع عن الحدود الكردستانية (٦) .

وخلال هذه الحرب اكتشف الكوزلـكلى قيمة استخدام البواخر في النقل سواء من الناحية التجارية أو من الناحية العسكرية ، ولهذا . عمل على تكوين شركة نصف رأسمالها حكومي والنصف الثاني أهلى لشراء باخرتين لتعملا في أنهار العراق . ونجح المشروع ، وتكونت الشركة ، وكلف الكوزلـكلى أحد المصانع

(١) Ibid.

(٢) ع. العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين ج ٧ ص ١٠٥ — ١١٦ .

(٣) من كبريات عشائر العراق البدوية العربية ولها تاريخ مجيد في الدفاع عن العراق ضد الفرس .

(٤) أكبر مجموعة عشائرية عربية تنزل في الصحراء بين العراق والشام .

(٥) Rawlinson to Redcliffe : No. 36, December 13, 1853, F.O. 195/367.

وعشائر المنتفق في جنوب العراق من أقوى عشائر العراق ولها تاريخ مجيد في الدفاع عن البصرة ضد الغزوات الفارسية .

(٦) Rawlinson to Redcliffe : No. 34, 35, November 16, 30, 1853, Ibid.

البليجكية^(١) لبناء الباخرتين لحساب الشركة . وهكذا نستطيع أن نقول إن حرب القرم هي أول حرب أوربية استخدمت فيها البواخر^(٢) وأنها أيضاً أول حرب أدت إلى استخدام البواخر الوطنية في المياه العراقية .

بعد تلك الاستعدادات حشد رشيد باشا قواته على طول الحدود العراقية الفارسية فاستفسرت السلطات الفارسية من المسؤولين العثمانيين عن سبب ذلك فامتنع العثمانيون عن إعطاء أى تفسير ، فرد الفرس على ذلك بحشد قواتهم في مواجهة الحشود العثمانية وحاول السفير العثماني لدى الشاه أن يقنعه بالعدول عن تلك الاستعدادات حتى لقد بلغ به الأمر أن هدد بمغادرة طهران أن لم توقف تلك الإستعدادات . ولكن دون جدوى^(٣) . فأخذت العلاقات تتوتر بسرعة كبيرة بين الدولتين خاصة وأن القنصل الفارسي في العراق كان في الوقت نفسه يهدد هو الآخر بالانسحاب من العراق بسبب المعاملة السيئة التي كان يعاني منها الفرس في العتبات المقدسة حينذاك^(٤) . وبما زاد في حدة التوتر أن الفرس عينوا خبيراً روسياً في الجيش الفارسي المرابط في (بوشهر) وإقليم فارس وهو أمر اعتبره العثمانيون تهديداً مباشراً للعراق حيث أن العثمانيين كانوا في حرب فعلية ضد الروس^(٥) .

ثم إن الفرس بعثوا بقواتهم إلى جزيرة (خرج) فرد العثمانيون على ذلك بأن طلبوا من شيخ الكويت الاستعداد لقتال الفرس وأن يضع سفنه في شط العرب لنهم

(١) يلاحظ أن رشيد الكوزلكلي لم يطلب بناء الباخرتين في المصانم البريطانية ولعله فعل ذلك عن عمد ، بقصد الابتعاد بقدر الإمكان عن مصادر النفوذ الإنجليزي في العراق . انظر عباس الزاوي : تاريخ العراق ج ٧ ص ١١٠ — ١١٤ .

T. Cuienet : La Turquie d'Asie, Paris, Tome III, p. 249.

(٢) . جرائد وه . تمبلى : تاريخ أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين ، ترجمة بهاء فهمي ومراجعة د . أحمد عزت عبد الكريم ، مؤسسة سجل العرب ص ٤١٧ .

Thompson to Clarendon : November 20, 1853, (I.O.R., (٢)
F.R., P.P.G., Vol. 106, pp. 237-9.

Rawlinson to Redcliffe : November 16, 1853, No. 34 (٤)
November 30, 1853, F.O. 195/367.

Thompson to Clarendon : November 20, 1853, (I.O.R., (٥)
F.R., P.P.G., Vol. 106, pp. 237-239.

من عبوره^(١) . ومع أن المحمرة كانت قد أصبحت تابعة لفارس بمقتضى معاهدة أرضروم الثانية ، إلا أن رشيد وجد أن الخطر الذى يهدد شط العرب من جانبها كبير ، وأنه من حسن السياسة أن يقوم بمحاولة لكسب صداقة وتعاون شيخ المحمرة معه . والمعروف أن تاريخ المحمرة عبارة عن سلسلة من التردد بين الولاء للسلطان والولاء للشاه . وفملا عرض الكوزلكلى على الشيخ جابر — شيخ المحمرة — أن يتعاون مع حكومة بغداد^(٢) . ولكن يبدو أن شيوخ عربستان والمحمرة فضلو الوقوف على الحياد خلال هذه الفترة .

والواقع أن الجبهة الجنوبية للعراق كانت أكثر الجبهات عرضة للغزو الفارسى ، وهو أمر كان يراه الإنجليز على جانب خطير من الأهمية بالنسبة لمصالحهم وأطماعهم فى المنطقة ، حيث أن سيطرة الفرس على شط العرب والبصرة تعنى أن منفذ العراق أصبح فى قبضتهم ، وأن السفن الإنجليزية العاملة بين بغداد والبصرة والخليج العربى والمهند أصبحت تحت رحمة فارس . فضلا عن استيلاء الفرس على البصرة أو شط العرب يضع الطريق العالمى عبر العراق إلى الهند فى يد فارس العادية للإنجليز حينذاك . ولهذا لم يكتف الإنجليز بالاستعدادات التى اتخذها الكوزلكلى للدفاع عن البصرة وعن شط العرب ، وإنما أرسلوا إلى شط العرب إحدى قطعهم الحربية البحرية وهى الباخرة أوكلاند Auckland لتسيطر على الوضع الراهن فى المنطقة الحساسة حتى لا تجد فارس أية ذريعة لإتعام حرب على الدولة العثمانية^(٣) . وأغلب الظن أن الإتفاق — الذى توصلت إليه الحكومتان الفارسية والعثمانية بشأن قيام كل منهما بضرب العشائر الجافية المتمردة على الحدود كلما استطاعت أية قوات فارسية أو عثمانية للحاق بها^(٤) — كان بوساطة الإنجليز الذين كان من مصلحتهم استتباب الهدوء على طول الحدود بين الدولتين .

Kemball to Thompson : December 15, 1853, (I.O.R., F.R., (١)
P.P.G., Vol. 107, pp. 83-90).

Rawlinson to British Embassy : January 25, 1854, No. 2 (٢)
(Saldanha : Precis of Turkish-Arabia, Calcutta 19-4, Paragraph
No. 7).

Ibid. (٣)

Thompson to Clarendon : August 21, 1854 (I.O.R., F.R., (٤)
P.P.G., Vol. 108, p. 703).

وانقضت بتلك الاستعدادات الأشهر الأولى من الحرب التي وقفت خلالها الدولة العثمانية بمفردها أمام روسيا . ثم حدث أن حطم الأسطول الروسي السفن العثمانية الراسية في ميناء سينوب في وقت كانت فيه مفاوضات الصلح قد أحرزت تقدماً كبيراً ، ولكن تلك الحادثة أدت إلى أن تعلن كل من فرنسا وانجلترا الحرب على روسيا .

ويبدو أن روسيا لم تعن كثيراً بنواحي العراق في المراحل الأولى من الحرب اعتماداً على المفاوضات الجارية لمعد الصلح ، وعلى مقدرة الفرس على إثارة المشاكل في وجه العثمانيين في العراق . فلما أعلنت فرنسا وانجلترا الحرب وتقطعت كل الآمال بشأن الصلح التفتت روسيا إلى الاستفادة من القوى الكارهة للحكم العثماني في العراق وكانت بمض هذه القوى مستعدة فملاً لأن تمد يدها إلى الروس ومن ذلك أن شيخ عشيرة (بانيازلي) الكردي ثار على الحكومة العثمانية وانضم إلى الروس^(١) . وأجرى الروس من جانبهم اتصالات بمشائركردية أخرى وكذلك بالنساطرة الكارهين للحكم العثماني^(٢) . ولكن هذه الاتصالات جاءت في وقت متأخر جداً من الحرب ولعل هذا التأخير كان لأن الروس فقدوا الثقة في أن يقوم الفرس بعمل إيجابي ضد العراق . ومع أنه كان من المنتظر أن يؤدي سقوط سباسبول (١٩٥٥/٩/٨) في يد الحلفاء إلى التخفيف من النشاط الروسي نحو العراق ، إلا أن سقوط قارص في يد الروس بعد ذلك بوقت قصير أعطى للروس إمكانات وفرصاً أوسع لزيادة نشاطهم في أنحاء العراق . وفعلاً خشي الإنجليز من تزايد هذا النشاط الروسي بين عرب وأكراد العراق بعد سقوط قارص ، وكان رشيد الكوزلكي أشد تخوفاً من الإنجليز في هذا الصدد حتى أنه طلب من الإنجليز أن يبعثوا إلى العراق — بأقصى سرعة ممكنة — بقوات هندية للمشاركة في الدفاع عن البلاد^(٣) .

وليست هذه هي المرة الأولى التي تأتي فيها قوات هندية إلى العراق خلال حرب القرم . فقد عبر ثلاثون ألف مقاتل من الهند العراق سنة ١٨٥٥ وهم في طريقهم

Rassam to Redcliffe : No. 10, April 26, 1856, F.O. 195/394. (١)

Kemball to Clarendon : No. 4, January 7, 1856, No. 5, February 4, 1856, F.O. 78/1212. (٢)

Ibid. (٣)

إلى جبهة القتال الروسية العثمانية في قارص^(١) ولكن القوات التي طلبها رشيد الكوزلكلي لم تمد هناك حاجة إليها لأن الحرب توقفت بعد ذلك بوقت قصير تمهيداً لعقد الصلح وبالتالي توقفت كل الاستعدادات العسكرية على طول الحدود الشرقية العراقية .

مما سبق يتضح لنا أن الاستعدادات العثمانية الفارسية على جانبي الحدود العراقية كانت كبيرة ولكن دون أن تقع اشتباكات بين الطرفين . وظل الهدوء سائداً على المسكرات حتى وقع صلح باريس ١٨٥٦ م . ولم يتعرض هذا الصلح للعراق حيث لم تجر فيه أية تغيرات . ولكن أثر ذلك الصلح تأثيراً غير مباشر على فارس ، حيث تمكنت إنجلترا — بعد أن فرغت من حرب القرم — من أن توجه ضربة إلى قارص ، فأرسلت حملة بحرية صمدت في نهر كارون واستولت على المهجرة (١٨٥٧) ، واشتركت في هذه العمليات الباخرة الإنجليزية المسلحة كوميت Comet الراسية أمام القنصلية الإنجليزية في بغداد . وتغاضى العثمانيون عن ذلك حيث أن التحالف الإنجليزي العثماني كان في ذروة قوته^(٢) .

وبعد حرب القرم ازدادت أهمية العراق ازدياداً كبيراً جداً نظراً لأن الفرنسيين كانوا فعلاً قد أخذوا من سعيد باشا — حاكم مصر — امتياز حق قناة السويس (١٨٥٤ — ١٨٥٦) . وأصبح طريق العراق — في نظر الإنجليز — هو الطريق البديل إذا ما سيطر الفرنسيون على قناة السويس . كذلك رأى عدد من الإنجليز المعينين بالمواصلات الإنجليزية مع الشرق الأقصى أنه قد أصبح من الضروري على إنجلترا تنفيذ المشروع الذي يربط البحر المتوسط بالخليج العربي بخط حديدي يتولى أمره الإنجليز . وتزعم هذه الفكرة و . أندرو Andrew^(٣) ، ف . جسي

Kemball to Clarendon : No. 4, January 7, 1857, F.O. (١)
78/1212.

Lorimer : Gazetteer of the Persian Gulf, Vol. I, Part I, (٢)
p. 1386 ; Tart II, p. 1698.

P. Sykes : A History of Persia, London 1951, Vol. II, (٣)
pp. 349-351.

(٣) اشتبه بمعمروعات من خطوط حديدية في الهند وبدعاياته واسمة النطاق من أجل مد خط حديد الفرات .

Chesney^(١) . ولكن بالمرستون أعلن في البرلمان البريطاني^(٢) أنه لن يوافق على إعطاء أى تأييد حكومى لمثل تلك المشروعات ، وفي نفس الوقت نثار بالمرستون في معارضته لمشروع شق قناة السويس^(٣) على أن الحكومة الإنجليزية في الوقت نفسه قررت أن تكون لها السيطرة الاحتكارية على أنهار العراق من النواحي التجارية والنواحي العسكرية على السواء ولم يتورع الإنجليز في ذلك عن أن يقتلوا أو على الأقل أن يسهموا في الإجهاز على مشروع رشيد باشا الكوزلكى الذى سبق أن أشرنا إليه . فملاحظ أن الباخرتين اللتين طلب رشيد باشا شراءهما لاستخدامهما في المياه العراقية لربط بغداد بالبصرة بخطوط بواخر منتظمة ، بدأتا في العمل في العراق في أبريل ١٨٥٩^(٤) ولم تمر سنة واحدة حتى تعطلت الباخرتان وأسمرت البيوتات الإنجليزية في العراق إلى تأليف شركة عرفت باسم شركة لينش للملاحة البخارية في نهري دجلة والفرات في ١٨٦٠ .

Messrs. Lynch of the Euphrates and Tigris Steam Navigation Company.

وكان بيت لينش هو ممثل هذه الشركة في العراق ثم استصدرت السفارة البريطانية في الاستانة فرماناً من الباب العالي يعطيهم حق استخدام باخرة في نهردجلة وفعلاً نزلت الباخرة سيقى أوف لندن إلى المياه العراقية في ١٨٦٢ . وتوالى نزول البواخر التجارية البريطانية في العراق حتى تفوقت البواخر البريطانية على العثمانية في الوقت الذى كانت توجد في المياه العراقية منذ ١٨٣٩ باخرة مسلحة بريطانية^(٥)

(١) هو نفسه قائد بعثة الفرات التي وضعت أساس السيطرة البريطانية على أنهار العراق (١٨٤٤ — ١٨٣٧) . وقد أورد هوسكنز تفاصيل وافية عن نشاط كل من أندرو وحسى في هذا الصدد .

انظر British Routes to India : London 1928, Chapters : VII, VIII, XIII.

Ibid., p. 24-26. (٢)

(٣) الرافعى : عصر اسماعيل ج ١ ص ٥٧ — ٦١ .

(٤) R. Brant's Memorandum Respecting the Navigation of the Tigris and Euphrates, April 1913. Confidential (10207), pp. 23-26.
Cunnet : op. cit., Tome III, p. 249.

Ibid., p. 341. (٥)

ولم يكن للعثمانيين أى باخرة مسلحة على نفس المستوى أى أن السيطرة العسكرية كانت لهم هناك وبفضل البواخر البخارية الجديدة حصلوا على السيطرة الاقتصادية كذلك . الأمر الذى سيؤدى إلى نزاع متطاوّل بين الإنجليز والعثمانيين لم يحسمه سوى الاحتلال البريطانى للعراق خلال الحرب العالمية الأولى .

المراجع العربية

- جرانت وعمبرلى : تاريخ أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين ،
ترجمة بهاء وفهمى ، مراجعة أحمد عزت عبد الكريم ، مؤسسة سجل
العرب .
- الرافعى (عبد الرحمن) : عصر إسماعيل ، ج ١ ، الطبعة الثانية —
القاهرة ١٩٤٨ .
- صفوت (محمد مصطفى) : محاضرات فى المسألة الشرقية ومؤتمر باريس
بمعهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية —
القاهرة ١٩٥٨ .
- العزاوى (عباس) : تاريخ العراق بين احتلالين ، بغداد ١٩٥٤ ،
١٩٥٦ ج ٦ ، ج ٧ .
- نوار (عبد العزيز) :
- * تاريخ العراق الحديث ١٨٣٠ — ١٧٨٢ ، المكتبة العربية —
دار الكاتب العربى القاهرة تحت الطبع .
- * داود باشا والى بغداد ١٨١٦ — ١٨٣١ ، المكتبة العربية —
دار الكاتب العربى القاهرة ١٩٦٨ .

صحف

- تقديم وقائع ، العدد ٥٤٧ لسنة ١٢٧٣ هـ / ١٨٥١ م .

Abbreviations

I.O.R., F.R., P.P.G. : India Office Records, Factory Records,
Persia and Persian Gulf.

الوثائق غير المنشورة

BRANT, R. : Memorandum respecting the Navigation of the Tigris and Euphrates, April 1913, F.O. Confidential 10207.

مصورة على ميكروفيلم

F.O. 78/656, 957, 1212.

F.O. 195/237, 334, 367, 394, 957.

F.O. 424/7 B, D.

مصورة على ميكروفيلم

India Office Records

● Factory Records, Persia and Persian Gulf, Vols. 53, 106-108.

● Political and Secret Department, vol. 13.

LORIMER, J.H. : Gazetteer of the Persian Gulf, voll I, part 1, Culcutta, 1915.

SALDANHA : Precis of Turkish Arabia, Culcutta, 1904.

مصورة على ميكروفيلم

TAYLOR : Memorandum on the Actual Position of the Pachaic of Bagdad (I.O.R., F.R., P.P.G., vol. 53, pp, 799-818.

المراجع الأوربية

CUINET, T. : La Turquie d'Asie, Paris, tome III.

FONTANIER, V. : Voyage dans l'Inde, Paris 1840 (2 tomes).

GRANT, A. : The Nestorians or the Lost Tribes. Containing Evidence of their Identity, London 1841.

- HOSKINS, J. : British Routes to India, London 1928.
- HUART, C. : Histoire des Arabes, Paris 1912, tome II.
- HUREWITZ, J. : Diplomacy in the Near and Middle East, vol. I, London 1958.
- LAYARD, H. : Early Adventures in Persia, London 1887.
- PLATONOV, S.F. : History of Russia, London 1925.
- ROSS, H.J. : Letters from the East (Edited by his Wife), London 1902.
- SAMUEL, J. : Journal of A Missionary Tour through the Desert of Arabia, Edinborough 1844.
- SYKES, P. : A History of Persia, London 1951 (2 vols.).
- WHIGHAM, N. : The Persian Problem, London 1903.